البعد السياسي في القصص القرآني
-قراءةٌ تداوليةٌ في مشاهدَ من قصتَي سليمانَ وموسى عليهما السلام-

د. بن بوفلجة محمد الفاتح
جامعة سيدي بلعباس

الملخص: الخطاب القصصي في القرآن الكريم خطاب شامل لجميع مناحي الحياة، إنَّه خطاب يهدف إلى إصلاح الجوانب العقدية والسلوكية والنفسية والسياسية...الخ؛ في حياة الفرد والمجتمع ويقوّم مواطن الزلل والقصور فيها بأسلوب يمزج بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني؛ ومن ثَمَّ الوصول إلى تحقيق الأثر المطلوب في نفس المتلقي وسلوكه، وتأتي هذه الدراسة محاولة رصد الأبعاد السياسية في القصة القرآنية، من خلال الوقوف على بعض النماذج –في قصتي سليمان وموسى عليهما السلام- الدالَّة على هاته الأبعاد؛ وتحليلها تحليلاً تداوليّاً مبنيّاً على توظيف نظرتي الحجاج والأفعال الكلامية، وذلك بغية الوصول إلى بعض ما يرمي إليه القصص القرآني من مقاصد ودلالات.

الكلمات المفتاحية: القصص القرآني، البعد السياسي، التداولية، الأفعال الكلامية، الحجاج.

Summary:
The narrative discourse in the Holy Qur'an is a comprehensive discourse that includes all aspects of life. It is a discourse aimed at reforming the contractual, behavioral, psychological and political aspects… etc in individual's life and society and it assesses the areas of a such lapses and shortcomings in a manner that mixes mental persuasion and emotional impact which will reach the desired effect on that individual and his behavior. This study comes as an attempt to monitor the political dimensions in the Quranic story, by examining some models - in the stories of Solomon and Moses, peace be upon them - indicating these dimensions; by a deliberative analysis based on employing the arguers' views and verbal actions, in order to reach some of the intentions and meanings of the Qur'anic stories.

Key words: Quranic stories, political dimension, pragmatic, speech acts, argumentation

نص المقال:

اهتمَّ الخطاب القصصي في القرآن الكريم بإصلاح الشُّؤون العامَّة للمجتمع وأسهم في تنظيم أمور النَّاس ورعاية أحوالهم وجلب المصالح لهم ودفع المفاسد والغوائل عنهم، وأوضح طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون قائمة بين الحاكم والرعية، كما بيَّن أنَّه لا يمكن لأيِّ أمة أن يستقرَّ بنيانها وتسير في طريق الرقي ما لم يكن هناك نظام سياسي يقيم العدل بين أطرافها ويذبُّ الظُّلم عن حياضها، ويرسم لها معالم النجاح ويخطُّ لها مسارات الفلاح.

والمتأمِّل في القصص القرآني يجده حافلا بتلك الأبعاد التي يمكن أن يستفيد منها المتلقِّي وأن يكون لها الأثر الايجابي في تنظيم حياته السياسية.

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن بعض الجوانب السياسية في الحضارات السابقة وأشاد بما اتَّسمت به من أمور إيجابية كتقسيم الوظائف وتوزيع المهام، وتفقُّد شؤون الرعية.....إلخ. كما يظهر في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، وفي المقابل حارب الجانب السِّلبي كالفساد السياسي وظلم الطبقة الحاكمة واستبدادها للشعوب....إلخ، كما سيأتي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهذا كلُّه يدل على المنزلة الكبيرة التي يتبوّؤها البعد السياسي في بناء الحضارة سلبا أو إيجابا.

1- الأبعاد السياسية المستفادة من قصَّة سليمان عليه السَّلام:

1- 1-الأبعاد السياسية المستفادة من قصَّة سليمان عليه السَّلام مع ملكة سبأ:

اشتملت قصَّة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ على جملة من الأبعاد السياسية يمكن حصرها في النقاط التالية:

أ. توزيع المهام والوظائف على الرَّعية وحسن التَّصرف في الإدارة: ويدلّ عليه بقوله تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [النمل:17]

بيَّنت هذه الآية الكريمة أنَّ جنود سليمان عليه السلام ثلاثة أصناف: [1]

- صنف الجنّ: وهو لتوجيه القوى الخفيّة، والتأثير في الأمور الروحية.
- صنف الإنس: وهو جنود تنفيذ أوامره ومحاربة العدوّ وحراسة المملكة.
- صنف الطير: وهو من تمام الجند لتوجيه الأخبار وتلقيها وتوجيه الرسائل إلى قواده وأمرائه.

وقد جاء الفعلان الكلاميان الإخباريان (حشر، يوزعون) يصفان ما كان عليه ملك سليمان من نظام محكم وحسن تصرّف في السياسة، رغم تنوّع واختلاف أجناس الجيش، "فجيش سليمان كان مرتّبا منظّما منسّقا منضبطا، وكان قادة فرق جيشه من الجنّ والإنس والطير يوزعون الجنود ويرتّبونهم وينظّمونهم، ويكفّونهم عن الخروج، ويمنعونهم عن الفوضى... فيسير آخر جندي بسير أول جندي، ويراعي الأول حركة الأخير، وبذلك تتناسق الحركات، وتنظم الخطوات، ويسير جميع الجنود خطوات مرتّبة منسّقة وكأنَّهم كلّهم رجل واحد"[2]، وهذا الوصف للجنود بالتّنظيم والانضباط يدلّ على حزم سليمان عليه السلام وعلى قوّته السياسية، وأنَّ ملكه كان قائما على نظام محكم واستراتيجية دقيقة وخبرة متناهية في التخطيط.

ب. تفقد أحوال الرعية ومعاقبة المخالفين: ويدلّ عليه قوله تعالى:(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) [النمل:20-21].

دلَّت الآيتان الكريمتان على بعد سياسي مهمٍّ مفاده أنَّ من واجبات ولاة الأمور تفقّد أحوال الرعيّة والمحافظة عليهم، فالهدهد مع صغر حجمه لم يخف حاله على سليمان فكيف بعظام الملك، وفي الآيتين أيضا دلالة على بعض السمات التي ينبغي توافرها في الحاكم كاليقظة والدقّة وعدم السّماح بالفوضى أو التسيّب في أوساط الجند.

وقد أسهم الفعل الكلامي الإخباري (تفقّد) في وصف مشهد التفقّد، فسليمان عليه السلام لما رأى غيبة الهدهد عن الجيش دون إذن ولا إجازة منه استفهم متعجّبا بقوله:(مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)، والاستفهام في هذا السياق يخدم مقاصد الخطاب ويلعب دورا أساسيا في الإقناع بالحجّة، إذ إنَّ المتكلم لا يقصد من وراء سؤاله البحث عن جواب، بل مقصوده التعجّب، ثمّ أتى بعد ذلك بالرابط الحجاجي (أم) الفاصل بين الاستفهامين، "مالي لا أرى الهدهد؟" و"أم كان من الغائبين؟". وهذا الرابط يدلّ على الانتقال من حجّة إلى أخرى من غير إبطال للحجّة الأولى، وتكون الحجّة الثانية منهما أقوى وأشمل من الأولى.

ومن الأبعاد السياسية المستفادة من الآيتين السابقتين: معاقبة الحاكم للمخالف إذا رأى في معاقبته مصلحة ظاهرة، فسليمان عليه السلام "أكَّد عزمه على معاقبة الهدهد بتأكيد الجملتين (لأعذِّبنَّه، لأذبحنَّه) باللام

المؤكّدة التي تسمّى لام القسم وبنون التوكيد، ليعلم الجند ذلك حتى إذا فُقد الهدهد ولم يرجع يكون ذلك التأكيد زاجرا لباقي الجند عن أن يأتوا بمثل فعلته فينالهم العقاب"[3]، وأسلوب التأكيد من العوامل الحجاجية التي تزيد من درجة الحجاج وقوّته وتنقل الكلام من مجرد الإخبار إلى التأكيد والإقناع.

أمّا المخالف لأوامر الحاكم إذا قدَّم العذر فإنَّ الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم، بباطن أعذارهم، لأنَّ سليمان لم يعاقب الهدهد حي اعتذر إليه... لكن للإمام أن يمتحن المعتذر إذا تعلَّق الأمر بحكم من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان بالتثبُّت من صدق الهدهد[4].

ج. السلطة السياسية لابدَّ عليها أن تتثبّت من الأخبار قبل إصدار الأحكام: وذلك أنَّ سليمان عليه السلام لما أبلغه الهدهد ما كانت عليه ملكة سبأ وقومها من عبادة للشمس وإشراك بالله لم يصدر سليمان في حقِّهم حكما بل أجاب الهدهد بقوله: (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [النمل:27].

إنَّ هذا الموقف من سليمان عليه السّلام يدلُّ على الموضوعية والمنهجية التي يجب أن ينظر بها الإنسان إلى الأخبار الجديدة التي يسمعها، فالمسارعة بقبولها سذاجة، والمسارعة بتكذيبها جهل وعناد، فلابدَّ للإنسان أن يتمهّل وأن يتثبّت ويتبيّن من تلك الأخبار، وأن يفحصها ويتأكَّد منها، وبعد ذلك يأخذها إن ظهر له صدقها، أو يرفضها إن ظهر له كذبها، ولا يلام على موقفه[5].

د. طبيعة نظام المراسلات السياسية بين الملوك والرؤساء في عهد سليمان عليه السلام: ويظهر هذا البعد السياسي في قوله تعالى على لسان سليمان: (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) [النمل:28].

اشتملت الآية الكريمة على أربعة أفعالٍ كلامية توجيهية (اذهب، ألق، تولَّ، انظر)، وهذه الأفعال قد جاءت مرتَّبة ترتيبا زمنيا، وكل فعل منها يوجِّه المتلقِّي للقيام بمهمَّة معينة وفيما يلي تفصيل ذلك:

- الفعل الأول (اذهب): أمره بحمل كتابه الموجَّه إلى ملكة سبأ، والتوجُّه من فلسطين إلى اليمن.
- الفعل الثاني (ألق): أمره عندما يصل إلى عاصمة سبأ أن يتوجَّه إلى قصر الملكة وأن يلقي الكتاب إليها.
- الفعل الثالث (تولَّ): أمره بعد أن يلقي الكتاب أن يبتعد عنهم قليلا بحيث يرى أثر الكتاب على الملكة ومستشاريها.
- الفعل الرابع (انظر): أمره أن يحسن مراقبة الأمر، وتسلسل الأحداث، وأن يعرف أثر الكتاب فيهم، وأن يقف على جوابهم وردِّهم عليه.

لقد وردت الأفعال التوجيهية في خطاب سليمان عليه السلام بصيغة الأمر، وقوّتها الإنجازية الحرفية تتمثَّل في توجيه الهدهد لقيام بفعل معين في مستقبل (الذهاب، الإلقاء، التولِّي، النظر) أمَّا قوّتها الإنجازية المستلزمة فتتمثَّل في الكشف عن نظام المراسلات بين الملوك والرؤساء في عهد سليمان، وتبيّن لنا أنَّ الحاكم يجب عليه أن يهتمَّ بالأخبار والمعلومات التي تخدم مصلحة الأمّة وتدعم الجانب الدبلوماسي بين الدول.

هـ. الثبات على المبدأ ومحاربة الفساد السياسي: يستفاد هذا البعد من قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) [النمل:36].

دلَّت الآية الكريمة على أنَّ الحاكم يجب عليه أن يتَّسم بالعفّة والنّزاهة وأن يصمد أمام الإغراءات والمساومات التي من شأنها أن تثنيه على ثوابته ومبادئه، وقد كان لهذا الموقف الحازم من سليمان عليه السلام أثرا في رجوع الملكة وقومها إلى الحقِّ وإسلامهم لله رب العالمين، ثمَّ إن قبول هذه الرّشوة يشجِّع الحاشية على الفساد السياسي خاصَّة إذا صدر هذا الأمر من رأس السلطة، لذلك سدَّ سليمان عليه السلام كل المنافذ المؤدّية إلى هذا المحظور.

ومن الآليات التداولية والحجاجية التي أسهمت في إنتاج هذا البعد في الآية الكريمة نذكر ما يلي: (6)

1. الفعل الكلامي: المتمثّل في فعل الاستفهام (أتمدونني)، وهو استفهام إنكاري؛ لأنَّ حال إرسال الهدية والسكوت عن الجواب يقتضي محاولة صرف سليمان عن طلب ما طلبه بما بُذل له من مالٍ، فيقتضي أنَّهم يحسبونه محتاجا إلى مثل ذلك المال فيقتنع بما وُجِّه إليه.
2. الرابط الحجاجي (بل): وهو للإضراب الانتقالي أي الانتقال من إنكاره عليهم إمداده بمال إلى ردِّ ذلك المال وإرجاعه إليهم.
3. العامل الحجاجي المتمثِّل في أسلوب القصر: وذلك في قوله: (أنتم بهديتكم تفرحون) فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في "أنتم....تفرحون" لإفادة القصر" أي: أنتم.

1-2. الأبعاد السياسية المستفادة من محاورة ملكة سبأ لقومها:

بعد ورود كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ استدعت قومها وجمعتهم لينظروا في أمر الكتاب، وقد صوَّر لنا الخطاب القرآنيّ مشاهد من المحاورة التي جرت بين الملكة وقومها، وهذه المشاهد جاءت ناطقة بجملة من الأبعاد السياسية ذات القيمة العالية نذكر منها:

أ. اتخاذ مجلس الشورى يجمع أهل الحلّ والعقد: فعندما وصل كتاب سليمان واطَّلعت عليه الملكة لم تنفرد برأيٍ أو قرارٍ بل جمعت أعيان القوم واستشاراتهم في هذا الشَّأن قائلة: (قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) [النمل:32]، حيث إنّها أمرتهم بإبداء الرأي وأنَّها لن تُقدِم على أيّ أمر دون استشارة منهم كما دلّ على ذلك:

- الفعل الكلامي التوجيهي: (أفتوني).
- العامل الحجاجي: (ما- حتى).

وهذا البعد السياسي (الشُّورى) هو أمر مطلوب في كلِّ شيء عام أو خاص، لأنَّه يحقق نفعا ملحوظا للتوصُّل إلى أفضل الآراء وأصوبها، وخصوصا في الحروب والمصالحات وقضايا الأمَّة العامَّة، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس قبل إسلامها استشارت قومها لتختبر عزمهم على مقاومة عدوِّهم، وحزمهم في أمرهم، ومدى طاعتهم لها، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده، وربَّما كان في استبدادها مكمن الخطر والضعف والسقوط في النهاية، وهذا كلّه دالّ على حسن سياستها ورشادها وحكمتها(7).

ب. الكشف عن طبيعة نظام الحكم في عهد سليمان عليه السلام: ويظهر هذا في قوله تعالى: (قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) [النمل: 29-32].

إنَّ هذا الموقف من الملكة وإخبارها ملأ قومها بتفاصيل حادثة الكتاب، وطلبها الرأي والمشورة منهم، وإعلان حرصها على ذلك، يدلُّ على طبيعة نظام الحكم في سبأ الذي كانت تمارسه تلك الملكة، لقد كان حكما متكاملا، يقوم على مشاركة وجوه القوم وزعمائهم للملكة في إدارة أمور البلاد، وكانت تحيط نفسها بهؤلاء الملأ المتنفذين المستشارين، وتعرض عليهم القضايا وتستشيرهم في المشكلات وتحرص على سماع آرائهم، والاستفادة منها، واعتماد المناسب منها، وهو أشبه ما يسمى بنظام الحكم الديمقراطي في هذا العصر[8].

وقد جسدت الأفعال الكلامية الإخبارية والتوجيهية (يا أيُّها، ألقي، أفتوني، ما كنت، تشهدون) هذا المعنى حيث صُدِّر الخطاب بفعل النداء لشدِّ انتباه المتلقي وجعله مقبلا لما سيلقى عليه، ثمَّ جاءت الأفعال الإخبارية تصف حادثة الكتاب وصفا دقيقا، وتلاها الفعل التوجيهي (أفتوني) الذي تمثَّل غرضه الإنجازي في حمل المتلقي على الإدلاء برأيه.

والأفعال الكلامية السابقة قد جاءت مؤكَّدة بأداة التوكيد "إنَّ" وذلك بغية إقناع المخاطبين بأهميّة هذا الأمر ومحاولة إشراكهم في اتّخاذ القرار، وهذا كلُّه يبرز طبيعة نظام الحكم السياسي القائم آنذاك.

ج. حسن القيادة السياسية وحصافة التقدير في الرأي[9]:

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) [النمل: 34-35].

تبيّن الأفعال الكلامية الإخبارية (دخلوا، أفسدوا، جعلوا، يفعلون، مرسلة، ناظرة، يرجع) في الآيتين السابقتين الصفات القيادية الناجحة، وحسن التعامل مع الأزمات السياسية والقرارات المصيرية الملحّة، من خلال تصرّف ملكة سبأ في الموقف، وقد كشفت الآيتان عن الأبعاد السياسية الآتية:

1. تقديم الخيار الدبلوماسي على منطق الحرب، إن أمكن تجنب الحرب وما تؤول إليه، وهذا يمثّله قوله تعالى: (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ)، فالملكة بعد أن استبعدت فكرة الحرب لجأت إلى الوسائل الودّيّة، ومنها المسالمة والمصالحة، واقترحت إرسال هديّة إليه، وكان ذلك هو الرأي السَّديد[10].

2. تفعيل الخيارات السابقة والتجارب الماضية في خدمة الرعية وهذا تقدير لاستخدام الحكمة ووضعها موضعها، ويمثّل ذلك قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)، حيث استدلّت بشواهد التاريخ الماضي على المستقبل[11].

3. حصافة التقدير في الرأي: يلحظ أنَّ ملكة سبأ لم تأخذ برأي الأغلبية التي رأت الإقدام على الحرب، لأنَّ الحاكم الحصيف له نظرة في مقايسة الأمور والحكم عليها، فلا شكَّ أن نظرتها أعمق من نظرتهم، ورأيها أصوب من رأيهم المتسرّع، وقد استطاعت بحنكتها السياسية إقناع الملأ المستشارين عمليا بضرورة التريُّث في صنع القرار، وأنَّ قرارا كهذا ينبغي دراسة أبعاده، والبحث عن البدائل السليمة التي من شأنها الإبقاء على النَّهضة والعمران في الحياة.

2. الأبعاد السياسية المستفادة من قصّة موسى عليه السلام:

من الأبعاد السياسية التي عالجها الخطاب الدعوي قضيّة الفساد السياسي التي تحدّث القرآن الكريم عن مظاهرها وبيَّن سبل مكافحتها، ولعلّ أبرز نموذج يمثِّل هذا اللون من الفساد نموذج الطاغية فرعون الذي

اضطهد شعبه واستخفَّ بعقول رعيته دهرا من الزمان، حتَّى جاء موسى عليه السلام محاربا لهذا الفساد، ومنقذا لبني إسرائيل من الظلم والاستبعاد.

ويمكن إبراز مظاهر الفساد السياسي في المملكة الفرعونية في النقطتين الآتيتين:

أ. اضطهاد الرعيّة وفساد نظام الحكم:

تحدَّث الخطاب الدعوي القرآني عن مظاهر فساد حكم فرعون، وذكر نماذج من اضطهاده وتعذيبه لبني إسرائيل، فمن ذلك ما ورد في قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [القصص:04].

تُلخِّص الأفعال الكلامية الإخبارية الآتية: (علا، جعل، يستضعف، يذبح، يستحي) مظاهر الفساد السياسي في حكومة فرعون، وكلُّ فعل من هذه الأفعال يصوّر حالة الاضطهاد والظلم التي عاشها بنو إسرائيل مع حاكمهم المستبدِّ، وهذه الأفعال هي على النّحو الآتي: [12]

- الفعل الأول (عَلَا): يصف هذا الفعل الكلامي مدى عتوّ فرعون واستكباره وتفنُّنه في إذلال المستضعفين من قومه.
- الفعل الثاني (جَعَلَ): يصف هذا الفعل الكلامي المظهر الثاني لفساد حكم فرعون، وكيف أنَّه جعل أهل مصر شيعا ليتحكّم بهم وفق القاعدة الفرعونية التي يطبّقها كلّ حاكم مستبدّ: "فرِّق تسد"، رغم أنَّ الأصل في الحاكم هو أن يجمع بين المحكومين، وأن يؤلّف بينهم، لا أن يفرّقهم ويجعلهم شيعا وأحزابا.
- الفعل الثالث (يَسْتَضْعِفُ): وفي هذا الفعل الكلامي إخبارٌ عن استضعاف فرعون لطائفة من شعبه، فكان يقرّب المؤيّدين والموالين ويقصي المخالفين والمعارضين.
- الفعل الرابع (يُذَبِّحُ/يَسْتَحْيِي): وهذان الفعلان الكلاميان يصفان مدى الظلم الذي لقيه الإسرائيليون، حيث كان يأمر فرعون بذبح وتقتيل أبناء هذه الطائفة الذكور ويقضي عليهم، بينما كان يترك نساء هذه الطائفة يعشن حياتهنّ بذلّة ومهانة، لا معيل لهنّ من الرجال.

لقد صوَّرت الأفعال الكلامية الخمسة (علا، جعل، يستضيف، يذبح، يستحي) طبيعة الحكم السياسي للطاغية فرعون الذي علا في الأرض، وجعل شعبه شيعا مختلفة، واستبعد المخالفين، واستضعف طائفة منهم، وذبّح أبناءها الذكور، واستحيا بناتها النساء، والحكم السياسي الذي يتَّسم بهذه الصفات هو حكم فاسد جائر، ولهذا قال الله تعالى عن فرعون في آخر الآية الكريمة: (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).

ب. الاستخفاف بعقول الرعية وتضليل الرأي العام:

من أبرز مظاهر الفساد السياسي في الحكم الفرعوني "الاستخفاف بعقول المحكومين وأفكارهم وشخصياتهم"، فهذا فرعون لا يقيم لرأي الرعية وزنا ولا يرعى له محلّا، والنُّصوص القرآنية الدالَّة على هذا الأمر كثير نذكر منها:

- قوله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [القصص:38].
- وقوله تعالى:(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) [غافر:29].

إنَّ هذه النصـــوص وغيرها تبرز مدى اســـتهتار فرعون بالرأي العام، وقمعه لمبدأ الحرّية فلا رأي ولا إدارة للشـــعب خارج إرادة فرعون، وقد وظّف -محاولة لإقناع المخاطبين- العامل الحجاجي (ما-إلّا) "والذي يعدّ عاملا حجاجيا مهمّا بما يقصر من شيء على شيء آخر في بنية النص، وتكون الفكرة المشتركة بين كلّ من المرســل والمتلقي هي المســار المؤدّي إلى نتيجة ما، ذلك لأنّ هذا العامل صــورة من صــور تقييد الفكرة المطروحة والضغط على محتواها الخبري، لكي يجعل المتلقي يلتفت إليها فلعلّه يذعن ويقتنع بها"[13].

ومن مظاهر التَّضـليل للرَّأي العام والتَّلاعب بعقول الرعية -أيضـا- في الحكم الفرعوني الفاسـد ما جاء في قوله تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْـــرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِـــرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْـــوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) [الزخرف: 51-53].

إنَّ في الخطاب السابق محاولة لتضليل الرأي العامّ واستخفافا بعقول الرعيّة وتعمية لهم عن الحقّ والهدى الذي جاءهم به موسـى عليه السـلام، "واسـتخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أوّلا عن كل سـبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتَّى ينسـوها، ولا يعودوا يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثّرات حتَّى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصـطنعة، ومن ثمَّ يسـهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين"[14].

وهذا ما قام به فرعون حيث عمد إلى مغالطة القوم واحتجّ عليهم بأمور ظاهرة مشاهدة لا مزية لها كجريان الأنهار من تحته، وسيطرته على ملك مصر، وقد جعل هذه الأمور مقياسا للمفاضلة بينه وبين موسى عليه السلام وهذا القياس فاسد الاعتبار.

ولخدمة هذه المغالطة الحجاجية وُظِّفت أفعال كلامية عديدة كالاســـتفهام الإنكاري في قوله: (أليس لي ملك مصر)، وقوله: (أفلا تبصرون)، وقد أراد من خلال هذه الأفعال الكلامية توجيه المخاطبين إلى الالتفات إلى أفضليّته على موسى عليه السلام، ظنّاً منه أنَّ الأفضلية تحصل بالنَّظر إلى ما يمتلكه من سلطة ومال وجاه وهي أشياء لا يمتلكها موسى عليه السلام، وهذا التضليل يصوّر لنا بوضوح الفساد السياسي داخل المملكة الفرعونية.

إنَّ الجوَّ السياسي الفاسد الذي عاشه بنو إسرائيل تحت ظلّ حكم فرعون كان يستدعي تغييرا جذريّا وبرنامجا إصـلاحيا، ونتيجة لهذا جاءهم موسـى عليه السـلام مصـلحاً ومخلّصـاً لهم من طغيان فرعون وجبروته، فكان خطابه عليه السـلام خطابا إصـلاحيّا يحارب الفسـاد السّـياسـي وغيره من صـنوف الفسـاد، وكانت أوّل خطوة إصـلاحية قام بها موسـى عليه السـلام هي دعوته إلى تحرير بني إسرائيل من استبداد فرعون وتخليصـهم من الرقّ والعبودية، وهذا الأمر وقد دلَّت عليه الأفعال الكلامية التوجيهية (أرسل، لا تعذب) والتي وردت في أكثر من آية منها قوله تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) [طه:47].

وقوله تعالى: (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) [الشعراء:17].

وهذه الأفعال الكلامية تدلّ "على أنّ موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمة مستقلة، بأن يبثّ فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم"[15]، وتحرير بني إسرائيل من استبداد الطبقة الحاكمة هو أهمُّ بعد سياسي يستفاد من قصة موسى عليه السلام.

هذه أبرز الأبعاد السياسية المستفادة من قصتي سليمان وموسى عليهما، والتي اتضح لنا من خلالها "أنَّ القصص التي قصَّها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين وحديث حُدّث به عن قوم، وباطنها وعظ للآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم"[16]، ولست أزعم في هاته الورقة البحثية أنَّني استوفينا الأبعاد جميعها؛ وإنَّما حسبي أنني وقفت على بعض النماذج التي أبانت -وبجلاء- عن جملة من الأبعاد السياسية التي يمكن أن نجعل منها نبراس حياة نحتكم إليه في سلوكياتنا ومعاملاتنا، كما ينبغي الإشارة إلى أنَّ الآليات التداولية والحجاجية (خصوصا الأفعال الكلامية والعوامل الحجاجية) قد أسهمت في إبراز هاته المعاني وإنتاج الدلالات.

الهوامش:

([1])ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دط، دت مج 08، ج19، ص 240.

([2])ينظر: صلاح الخالدي، القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط01، سنة 1998، ج 03، ص 517.

([3])محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 08، ج19، ص 247.

([4])وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط10، سنة 2009، ج10، ص317.

([5])ينظر: الخالدي، القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، ج 03، ص 535.

([6])ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 08، ج 19، ص 268-269.

([7])ينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج10، ص ص 321-325.

([8])ينظر: الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل الأحداث، ج03، ص ص 541-542.

([9])ينظر: زكريا الخضر، القيم الحضارية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج 06، ع01، سنة 2010، ص 101.

([10])ينظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج10، ص 322.

([11])ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 08، ج19، ص266.

([12])ينظر: الخالدي، القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، ج02، ص ص 266-268.

([13])ينظر: مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، منشورات ضفاف بيروت، ودار الأمان الرباط، ط01، سنة 2015، ص 108-109.

([14])ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت لبنان، ط09، سنة 1980، ج05، ص3194.

([15])ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 16، ج19، ص230.

([16])ينظر: الزرقاني محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط02، سنة 1996،ج02، ص68.